من قضايا الإصلاح عند المفتي الجزائري ابن العنابي (1775ـ1850م)

أ/ أحمد سلطاني، جامعة ابن خلدون تيارت

soltaniahmed79@gmail.com

الملخص:

المفتي محمد بن محمود ابن العنابي من العلماء الفقهاء على المذهب الحنفي ،ومن أبرز رجالات الاصلاح والفكر في الجزائر والعالم العربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، ظهرت افكاره الاصلاحية جليا في الميدانين السياسي والعسكري خاصة، وضمنها كتابه "**السعي المحمود في نظام الجنود**" الذي ألفه سنة 1826م يستنهض بها الدولة العثمانية وايالاتها من السبات العظيم الذي كانت تعيشه في عصره، لاسيما التدهور الاقتصادي والعسكري في هذه الفترة بالضبط، وضرورة العمل على مواكبة التطورات العلمية والعسكرية التي كانت تعيشها الدول الأوربية بفضل سياساتها الحكيمة في الميادين السالفة الذكر.

كما كان لابن العنابي دور آخر في جهاد الاحتلال الفرنسي لا يقل اهمية عن الاصلاح المنشود، ألا وهو الدفاع عن حقوق وممتلكات الشعب الجزائري الضائعة بعد الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر والتي ضمنتها بنود معاهدة الاستسلام 5 جويلية 1830م، ولم تدم اقامته في الجزائر بعد ذلك طويلا حيث تم نفيه إلى مصر سنة 1833م، بعد أن حيكت له مؤامرة تهديد التواجد الفرنسي في الجزائر، وإعادة الحكم الاسلامي إليها.

الكلمات المفتاحية : المفتي– الاصلاح – الدول الاوربية – الجزائر.

Abstract: Mufti Muhammad Ibn Mahmud Ibn al-Annabi, a scholar of the Hanafi school of jurisprudence and one of the most prominent men of reform and thought in Algeria and the Arab world in the first half of the nineteenth century. His reformist ideas were particularly evident in the political and military fields, such as his book " The glorious Age in

the System of Soldiers" , which he wrote in 1826 to urge the Ottoman Empire and its emanations to awake from the great hibernation that it had experienced in its time, especially the economic and military deterioration in this period, and the need to keep abreast of the scientific and military developments that were experienced by the European countries thanks to their wise policies in the aforementioned field. Ibn al-Annabi also had another role in the struggle against the French occupation, no less important than the desired reform, namely, the defense of the rights and the lost property of the Algerian people after the French occupation of Algiers, guaranteed by the terms of the Treaty of surrender 5 July 1830. Ibn al-Annabi had not remained for a long time in Algiers before he was exiled to Egypt in 1833, after he had been plotted a plot to threaten the French presence in Algeria and restore Islamic rule

Keywords: Mufti - Reform – European countries - Algeria

مقدمة :

المفتي محمد بن محمود ابن العنابي من بين أبرز علماء الجزائر الذين نادوا في فترة مبكرة بضرورة الاصلاح في جميع الميادين، وبخاصة الجانب السياسي والعسكري، بعد أن لاحظ اتساع الهوة بين ما تعيشه الدول الأوربية من نهضة حديثة، ومن تطور اقتصادي وعسكري بفضل سياساتها الحكيمة والراشدة ،وما كانت تعيشه الدولة العثمانية من تقهقر اقتصادي وعسكري خسرت به الكثير من هيبتها العالمية بسبب سياسات سلاطينها وولاتها التي بقيت تراوح مكانها.

والمفتي ابن العنابي من العلماء الأحناف بالجزائر العثمانية في أواخر أيامها(1826–1830م) غير أنه كانت له دراية كبيرة بالفقه وعلومه على المذاهب الأربعة، وتقلد عدة مهام دينية وسياسية في الجزائر، وكان على اطلاع واسع بقضايا العالم العربي والاسلامي والأحداث العالمية ،فبوأته مكانته العلمية في الاهتمام بقضايا الاصلاح والتجديد في ربوع الدولة العثمانية عسى أن يصلح بقلمه ما ألت إليه الأوضاع من تدهور أضعف من قوتها واتساعها، فماهي الظروف التي دفعت بالمفتي ابن العنابي العالم الفقيه الخوض في الاصلاح؟ وفيما تمثلت رؤيته للإصلاح في عصره؟

– **التعريف بالمفتي ابن العنابي:** هو محمد بن محمود بن محمد ابن العنابي فقيه وقاض ومفتي حنفي من مواليد مدينة الجزائر سنة 1189هـ/1775م

(سعيدوني،ن.531:2014)، أخذ العلم فيها عن شيوخها كعلي بن عبد القادر بن الأمين، وعلى يد والده محمود بن محمد وجده محمد بن الحسين العنابي ،نفاه الفرنسيون بعد احتلال الجزائر سنة 1833م في عهد القائد العسكري الجنرال كلوزيل(Bertrand Clauzel) إلى مصر، حيث استقر بالإسكندرية، وهناك ولاه محمد علي باشا(1805–1848م) وظيفة الإفتاء الحنفي وبقي بها إلى أن توفي سنة 1267هـ/1850م (سعيدوني، ن.532:2014).

والرجل من العلماء المصلحين السياسيين والاجتماعيين الذين دعوا إلى التجديد الإسلامي وضرورة تقليد الأوربيين في العلوم والصنائع ضمنها كتابه "السعي المحمود في نظام الجنود" الذي ألفه في فترة اقامته بمصر سنة 1826م، فكانت له بذلك عدة محطات تستحق الذكر والإشادة في تاريخ الجزائر أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال(1814–1833م) نذكر منها :

1) في الجانب السياسي والدبلوماسي:

كانت له سفارة إلى المغرب في عهد المولى سليمان(1792–1822م) بطلب من الداي عمر باشا(1815–1817م) ،هذا الأخير الذي أرسله لطلب المعونة العسكرية بعد تحطم الأسطول الجزائري في حملة اللورد اكسموث(Exmouth) الإنجليزي(1757–1833م) على الجزائر سنة 1231هـ/1816م وفي نفس المهمة أيضا كلف بسفارة أخرى إلى اسطنبول سنة 1232هـ/1817م في عهد السلطان محمود الثاني(1808–1839م)(سعد الله،أ.126–127).

تولى أيضا الكتابة لدى الداي أحمد باشا(1805–1808م) إلى باي تونس حمودة باشا (1782–1814م) حسبما يشير إلى ذلك نقيب الأشراف الحاج أحمد الشريف الزهار(1781–1872م) في مذكراته(الزهار،أ.97:1980)، وهذا ما يؤكد نبوغ هذا الشخص في غير الفقه بل تعد علوم الدين وتعددت ثقافاته إلى أنه كان دبلوماسيا شامخا وخبيرا بالشؤون الدولية، كما نرى أنه تقلد وظيفة نقيب أشراف مكة والمدينة في عهد الداي عمر باشا 1231هـ/1814م (سعد الله، أ.28).

ويتبين ضلوع شخصية ابن العنابي في الجانب السياسي أيضا من خلال كتابه السعي المحمود في نظام الجنود في المقصد الثاني المخصص للأمور السياسية، حيث نجد الرجل على دراية بأمور السياسة وبخاصة أمور السياسة الشرعية كما يعرف في ابواب الفقه

الإسلامي، فقد عرف في هذا الكتاب معنى السياسة وضرورة ما يجب أن يكون عليه الحكام والساسة من أخلاق في تعاملاتهم ولباس يزينهم وهمم في الاهتمام بالرعية والعسكر، و في أمور الجباية وتنظيم بيت المال والعدل، وأن لا يهملوا الشورى في أصحابهم وجلسائهم، مستدلا عن كل هذا بنصوص من الكتاب والسنة النبوية ومن الأثر(العنابي،م.1983:201).

2) في الجانب العسكري :

وكان للمفتي ابن العنابي اكبر ظهور على الساحة الجزائرية أثناء الحملة الفرنسية على الجزائر حيث قلده الداي حسين (1818–1830م) مهمة القائد العسكري(بيك،ع.2015:188) وهذا بعد تخاذل المسؤول العسكري الأول إبراهيم آغا والكثير من الجنود العسكريين عن القتال، وكلف بشحذ هممهم وحثهم على الاستبسال في المقاومة إلا أن هذه الفرصة التي اعطيت له في قيادة الجيش المقاوم جاءت متأخرة ووقع الإحتلال بعدها بفترة يسيرة(خوجة،ح.159–160)، وفي هذا الشأن يقول فيه حمدان خوجة (ت:1840م): " هو رجل فاضل ورجل دين ولا يصلح لمقام قائد عسكري" (خوجة،ح.227–229)، غير أن المطلع على كتابه " **السعي المحمود في نظام الجنود** " يوحي أن الرجل على علم ودارية بالعلوم العسكرية والجهاد من خلال ما يورده من نصوص قرآنية وأحاديث وكيفية تحليله لها توحي وكأن له معرفة ميدانية بعلوم القتال والجهاد، غير أنه لم يسبق له الانخراط في سلك الجيش والجنود.

غير أننا نلاحظ تشكيك **سعدالله** في هذه الشخصية حيث يرى أنه رجل آخر ويستدل حول هذا بأنه في السنوات الأخيرة قبل الإحتلال(1828–1830م) تقلد مفتون حنفيون كثر وحمدان خوجة أثناء الحملة يذكره بلقب شيخ الإسلام ولا يذكره بإسمه(سعدالله،أ.31–32) **وجواخيم قونزاليز** في مشاهير علماء مدينة الجزائر يذكره سنة 1830م باسم المفتي محمد بن محمود بدون لقب الشهرة ابن العنابي ودون ذكر سنة التولية، في حين يذكر المفتي الحنفي سنة 1819م محمد بن محمود بن حسين العنابي(كونزاليز،ج.57).

وبعد وقوع الاحتلال كان لابن العنابي دور كبير في مجابهة المحتل الفرنسي حيث كان شديد النقد له فيما يخص عدم احترام شروط وبنود معاهدة الاستسلام والالتزام بها، وهذا في فترة القائد العسكري الفرنسي الجنرال كلوزيل(Clauzel) وهذا في عدة رسائل

وجهها إليه(سعدالله،أ.74:2009)، فضاق به هذا الأخير ذرعا خاصة وأنه قبل هذا رفض المفتي تسليمه بعض مساجد الجزائر من اجل استعمالها كمستشفيات(سعدالله،أ.75:2009)، وحاك له مؤامرة تهديد الوجود الفرنسي في الجزائر ومحاولة إعادة الحكم الإسلامي بها أدت إلى سجنه، ثم إلى نفيه بعد ذلك إلى الإسكندرية في مدة وجيزة ،ويذكر حمدان خوجة كيف توسط له عند الجنرال كلوزيل(Clauzel) بعد صدور أمر نفيه للإسكندرية ليمهله بعض الوقت لبيع ممتلكاته بمدينة الجزائر، كما يذكر ايضا تعرض عائلته للاعتداء الفرنسي(خوجة،ح.227–229).

– ابن العنابي وضرورة الاقتباس العلمي من الأوربيين :

من خلال تصفح كتاب ابن العنابي "**السعي المحمود في نظام الجنود**" يتضح مدى تأثره بالأوضاع التي كانت تعيشها الدولة العثمانية وإيالاتها من أخطار تهدد أمنها وسلامتها كالحرب الروسية(1806–1812م) والحرب اليونانية(1824–1827م)وتكالب الدول الأوربية عليها ،وفي هذا نرى أن كبار رجال الدولة العثمانية في ذلك الوقت وعلى رأسهم السلطان العثماني محمود الثاني (1808–1839م) بدءوا في الأخذ بالتطور العلمي الحاصل في أوربا خاصة في تنظيم الجيوش وتسليحها فأراد البدء بإصلاح الجيش الإنكشاري الذي كان يقف في طريق بداية عهد التنظيم والتجديد في الدولة العثمانية (ياغي،أ.148–150)،فدخل السلطان محمود مع الجيش الانكشاري في خصومة طويلة أدت بالقضاء على هذا الأخير نهائيا سنة 1826م(المحامي،م.429:1971)، ويعود سبب الخلاف في ذلك إلى رأي قادة الجيش أن هذا يعارض خصوصيات الجيش الإسلامي والشريعة الإسلامية ، كما أن محمد علي والي مصر(1805–1848م)قد أخذ بهذه الاقتباسات من الأوربيين والتي سبق بها الدولة العثمانية في إطار سياسته التوسعية (مانتران،ر.37–38)، فكل هذه الأحداث أثرت في فكر ابن العنابي الذي كان قافلا من الحج وهو في مصر فألف كتابه السعي المحمود في نظام الجنود والذي كان ربما بإيعاز من محمد علي باشا ،فابن العنابي يشير في مقدمة كتابه السعي المحمود أنه الف هذا الكتاب في تلبية رغبة بعض فضائل الإخوان(العنابي،م.50:1983)، إلا أن الأحداث السابقة التي ذكرنا قد تكون هي السبب الرئيس في تأليفه هذا.

والمفتي ابن العنابي يندرج كتابه هذا في إطار الجهاد الإسلامي ويقول انه يقع في مقصدين احدهما سياسي وهو ما يجب أن يكون عليه الحكام في من مظهر ومن همم نحو رعيتهم واتخاذ الشورى مع رجال الدولة، والآخر أمور حربية(العنابي،م.50:1983) أو عسكرية، وفي هذا الجانب الأمر الجديد الذي أتى به ولم يسبقه إليه أحد أنه ألف كتابا خاصا في الجهاد، وقسمه إلى فصول تنم عناوينها عن مدى اجتهاده وتطلعه، حيث تحدث عن ضرورة تنظيم الجنود وترتيبهم وكيفية اصطفافهم في المعارك وتضييق ملابسهم و استعمال الحصون و حفرهم للخنادق مستدلا عن كل ذلك بنصوص من القرآن والسنة النبوية(العنابي،م.151:1983).

ومن الجديد الذي أتى به أيضا في الأمور الحربية ضرورة الاقتباس والأخذ عن الأوربيين في كل الفنون الحربية التي يعرفونها ،وبخاصة قضية تطوير السلاح ويشير إلى ذلك بعلوم الآلة التي لدى الكفار كما يسميهم، ويرى أن هذا من الأشياء التي يأمر بها الشرع ولا يبطلها(العنابي،م.195:1983).

ونرى في هذا الأمر أن محمد علي والي مصر قد أخذ بهذه التنظيمات التي كانت موجودة في بلدان أوربا كما سبق وأن ذكرنا(مانتران،ر.37–38)، وأمر في ذلك تلميذ ابن العنابي إبراهيم السقا أن يختصر له كتاب السعي المحمود وفعلا اختصره له وسماه "بلوغ المقصود مختصر السعي المحمود في تأليف العساكر والجنود"(سعد الله،أ.113).

وبالإضافة للمقصد السياسي والحربي ذيل ابن العنابي كتابه بخاتمة جعلها حول أمور شتى في النصر والتمكين تتمثل في اجتناب المعاصي والحرمات التي هي سبب تسلط الكفار وضرورة نصر المؤمنين في كل مكان وعدم التقاعس عن الجهاد وذكر شروطه وبعض اسباب العز والتمكين مستدلا أيضا بالنصوص القرآنية والنبوية والأثر (العنابي،م.221:1983).

3) في الجانب الاجتماعي:

– **رأيه في المرأة:** يرى أن المرأة لا يجوز لها كشف وجهها أمام الأجانب درءا للفتنة والشر، وإن كان ذلك يجوز شرعا، ويرى حكم اللمس أغلظ من كشف وجهها للأجانب أو

النظر إليها، ويرى ايضا أنه لايجوز لها كشف أي جزء من جسمها كعضديها أو ذراعيها وإن كانت عجوزا طاعنة في السن بعد أن حرم كشف وجهها أصلا(سعد الله،أ.121).

وقضية الإطلاع على زينة المرأة بحكم الأخوة في الله، فهذا يراه من المعاصي التي استحلت، وهي من فعل الزندقة والأمور الدخيلة على الإسلام وأهله وعلى من يروجون لهذا الأمر عن جهل وغباء النهي والزجر ،وإن لم ينتهوا فجزاؤهم القتل لأن هذا استحلال حرام قطعي ويكفي ما وراءه من فساد للأمة الإسلامية (سعد الله، أ.121–122).

4) في الجانب الثقافي:

ترك ابن العنابي العديد من المؤلفات في السياسة الشرعية والعلوم الإسلامية نذكر منها(سعد الله، أ.39–42) :

- السعي المحمود في نظام الجنود ألف في مصر سنة 1826 يرمي المؤلف من وراءه إلى إصلاح المجتمع الإسلامي في الدولة العثمانية وإيالاتها وضرورة تحصيل العلوم العسكرية خاصة، للوصول إلى ما وصلت إليه أوربا كما سبق وذكرنا.
- كتاب الدر المختار في الفقه الحنفي
- العزيز في علم التجويد في علم القراءات.
- الفتح القيومي بجواب أسئلة الرومي عبارة عن أجوبة على مسائل متعددة.
- والكثير من الفتاوى والأجوبة عن المسائل المختصرة والإجازات العلمية والمراسلات العديدة ، وقصائد الشعر.

ابن العنابي من العلماء الجزائريين القلائل الذين كانت لهم سعت اطلاع عن ما كان يعيشه العالم الاسلامي والعالم الغربي من صراع حول النفوذ والسيطرة، فجاء تاليفه هذا كضرورة لبداية الاصلاحات في الدولة العثمانية وايالاتها.

على الرغم من أن ابن العنابي تم نفيه من الجزائر من طرف الداي حسين، بقي المفتي يحمل هموم بلده الجزائر وسائر ايالات الدولة العثمانية فجاء تأليفه الجدير بالإشادة "السعي المحمود" في مصر والذي حل في وقته تماما مع فترة بداية عهد الاصلاحات في مصر في

عهد محمد علي(1805–1848م)، وفي الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود الثاني1808–1839م)، وضمنه مؤلفه كثيرا من أفكاره واصلاحاته حول المشاكل والظروف التي كانت تتخبط فيها الدولة العثمانية.

ما لبث أن عاد ابن العنابي ولب نداء الجهاد لما طلب منه الداي حسين(1818–1830م) العودة للجزائر مع بداية الحملة الفرنسية عليها رغم مرارة النفي والبعد عن الأهل، وما تلاه من أدوار في الدفاع عن ممتلكات ومقدسات الشعب الجزائري إلى غاية نفيه للاسكندرية بمصر(1833م) من طرف المحتل الفرنسي،والتي تحسب في تاريخ هذا الرجل وجهوده العلمية والإصلاحية والتي قلما أتى بمثلها.

كتاب السعي المحمود من كتب الجهاد في الفقه الاسلامي ،وابرز فيه ابن العنابي ضرورة اتخاذ العلوم التقنية و العلمية التي عرفتها أوربا، والتي ميزت عصره ولم ير فيها ما يخالف الشريعة الاسلامية.

تحدث ابن العنابي عن المرأة ولم يلزمها إلا بما ألزمتها الشريعة الاسلامية أوبما يدنس عفتها فقط.

جاءت مؤلفات ابن العنابي متنوعة في العلوم الشرعية وقضايا العصر، بالرغم أن مؤلفات أقرانه كانت لا تخرج عن طابع علوم اللغة العربية والعلوم الاسلامية في تلك الفترة.

قائمة المصادر والمراجع:

1 بيك، عبد الحميد(2015).أعيان من المشارقة والمغاربة(تاريخ عبد الحميد بك)،الجزائر:عالم المعرفة.

2 الزهار، أحمد الشريف(1980).مذكرات،الجزائر:الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

3 ياغي، أحمد اسماعيل.الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، مكتبة العبيكان.

4 كونزاليز، جواخيم. مشاهير علماء مدينة الجزائر.

5 مانتران، روبير، بداية المسألة الشرقية 1774–1839، روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، الفكر.ص ص5–62.

6 المحامي، محمد فريد بك(1971). تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط1، دار النفائس.

7 سعيدوني، ناصر الدين(2014). من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الاسلامي، ط2، الجزائر:دار البصائر.

8 سعدالله، أبو القاسم (2009). محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، الجزائر:عالم المعرفة.

9 سعدالله، ابو القاسم. المفتي ابن العنابي رائد التجديد الاسلامي1775–1850.

10 خوجة، حمدان بن عثمان.المرآة،تقديم وتحقيق:محمد العربي الزبيري،الجزائر:منشورات Anep.

11 ابن العنابي، محمد بن محمود(1983).السعي المحمود في نظام الجنود، تقديم وتحقيق محمد عبد الكريم، الجزائر:المؤسسة الوطنية للكتاب.